فلسفة للحياة وديانة للضمير

نعيش فى ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين . لأن الفلسفة هى الدين . والرجل العصرى الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح المتعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هى نفسها قضية الفلسفة ، وهى : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة . ومقاييس الدين هى فى النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلا فى كلمة برنارد شو : إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أو قدوة أو علما أو اختراعاً أو زيادة فى الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ، والفلسفة تطالبنا بالمنطق ، ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فان فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليما فى بعض الأحوال .

وقد يقال أيضاً إن فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات . ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

إنى أذكر ، أنى حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأشك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالانكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الايمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة و إلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الانسان عن ضميره الدينى كيف تكوّن ثم نما ثم تيلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسية ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل مافى الشخصية من نشاط روحى . ولكنى أذكر أنى وأنا دون العشرين أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينيا فى نفسى ، وأنها قد حملتنى واجباً روحيا . وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون ، كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيما . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فاذا به فيروس ، ثم أميبة مفردة ، ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم سمك ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الانسان سوف يكون سبرمانا .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفى هذا معنى دينى جليل ؛ لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة ، وكلنا قد قطعنا على هذا الكوكب نحو ألف مليون سنة . وقد انقرض بعضنا وبقى بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض والبقاء يتجه التطور فى مجموعه نحو ما نفهم من الرقى البشرى: وجدان موضوعى يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أى عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقى البشرى أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقى مفروض علينا واجب حتم بل واجب دينى بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصع لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضرورى ، كى يكون لنا دين أو ضمير دينى ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية فى أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلا . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والانسان العادى حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » ولكنا عندما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح دينى ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبنى كلمة قالها ماتزينى الوطنى الايطالى : « ليس

هناك انتصار للروح البشرى أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة » .

وفى سنى أجد أن مصادر ديانتى ، أو بالأحرى ضميرى الدينى ، إلى جنب البوذية والاسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود فى كثير من النور الذى أهتدى به إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ . فان هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية ، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا فى المستقبل . ولذلك كانت ديانتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى وصباى فانها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى ، ثم عدت إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها ، فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هذا إحساساً تاريخيا .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما . ولكن الاحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ولست أشك أنى حين انكببت على دراسة الفراعنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى قومى . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومى .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال باشا ، وكان قد درس اللغة القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فان اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى كانت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يخسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً

باحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الانجليزية خير لهم ، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صديقى كامل غبريال باشا؛ فانه لتعلقه بلغة الفراعنة صد عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) وبين عقائد الفراعنة ، كى يقنعنى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جدا فى نفسى ؛ حتى إنى لخصت أحد الكتب التى كانوا ينشرونها وهى « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين ، وأصدرت هذا التلخيص فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة فى مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابى « اليوم والغد » . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً فى جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى فى تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه فى تفسير الغيبيات. وبعد ذلك عرفت «الغصن الذهبى» لفريزر وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المنشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه فى إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمه . وهذه المؤلفات لفريزر واليوت سمث ، مع تناقضها ، هى تربية خصبة وتثقيف سام لكل من يدرسها ، ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتماماتى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى مثل النضج الجنسى لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أنى وجدت أن القوة الجاذبة فى شخصية المسيح كبيرة جدا . وقد مضى علىّ نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحبى له . ولكنى كلما كنت أفكر فى الالتباسات ، التى سوف تنشأ بينى وبين

بعض القراء ، كنت أنكص وأنا فى أسف ومرارة ؛ لأنى أكره أن أولم المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين فى السيرة التى أرويها مخلصاً أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى ورينان .

ولست أشك أن الرجل المسيحى فى دنيانا هذه وفى عصرنا هذا هو المثال الأسمى فى الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال فى السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر ، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شئ حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى ، استقلال الضمير ، حتى نعمل ما يوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الايمان الرسمى بالمسيحية إذ وليس من الضرورى ، كى يكون للانسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين ؛ فان جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة . وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحى واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الانجيل أو التوراة مناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقدساً له ، وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الدينى البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط دينى محايد أى غير متحيز . حتى لقد انتحى بى بعض الأعضاء وسألونى : لم لا يفعل جميع البشر مثلما نفعل نحن هنا فى العريش ؟ أى يضعون جميع الكتب المقدسة فى جميع المعابد .

وأذكر أنى نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندى الذى تولى الحكم فى القرن السادس عشر ؛ فانه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطلب منهم أن يتفقوا على ديانة

جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . وقلت لهم أيضاً إن السلطان أكبر هذا تزوج أربع نسوة إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كى ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذى يدعمه التقارب الدينى . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهى لا تعرف معنى للتعصب فى الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعلق فى الغرفة التى يأتى إليها القارئ فى الصباح كى يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون فى حضرته إلى جنب كهنة اليهود . وقصة أكبر هى إحدى قصص القداسة الهندية التى نرى لها صورة أخرى فى عصرنا فى غاندى .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض دياناتى يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » و إلى « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ، و إلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستويفسكى و إلى أخناتون ؛ فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرقى البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارئ هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ماوهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابى من الغيبيات علميا منطقيا . ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية ؛ لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور . أما التفكير الغيبى فمقيد جامد . ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل إذ يقول إنه ليس له ديانة هو ، كما يقول برنارد شو ، رجل بلا شرف . ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن كى نجد لها كلها غاية ، فانما ننشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أى دستوراً روحيا وأخلاقيا يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والانسان والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هذا الدستور . وهو ليس دستوراً جامداً إذ هو يتغير ويتطور كلما تقدمنا فى السن وازدادت بصيرتنا نوراً .

ولما شرعت أدرس السيكلوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هى سلام النفس . فانه ليس شك فى أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أى الكون ، لن يخونه حتى حين يصطدم بالمصاعب ، أو قل إنه يعيش فى وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آماد أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندى إزاء الجبال من المصاعب التى يلاقيها ؛ فانه فى كل حياته أكثر اطمئناناً وأعمق ابتهاجاً من أى إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه أى إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أى الفلسفة ،قيمة سيكلوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدى إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذى قد ينتهى بالتحطم . وعندما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يتردوا فى الهوة إلا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطئة ، هى فى الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم ، وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التى يوحيها كل دين فى العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تتيح لهم سلام النفس الذى فقدوه .

ولا بد أن القارئ سيسائل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق فى التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟

وجوابى أنى لا أعرف أمصيب أنا أم مخطئ ، ولكنى هنا أذكر إحساسى . وإذا شئت التمييز بينهما فانى أقول إن الاحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الانسان بل حب الحياة والكون . أما الاحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يندغمان عندى . وإن كان

أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأظن أن هذا هو إحساس غاندى : تأمل وطرب معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فاذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أنى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولاً ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه النهاية ، هذا التجوهر ، هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمة فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محيى الدين ابن عربى حين يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .

ومن الحسن أن تذاع مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعانق فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الانسانية نجدها أيضاً فى المعرى حيث يقول وإن يكن موقفه سلبيا :

إذا الانسان كف الشر عنى ... فسقياً فى الحياة له ورعيا
ويدرس ، إن أراد ، كتاب موسى ... ويضمر ، إن أحب ، ولاء شعيا

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ... ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً ... ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتى ، من الناحية الغيبية ، تشبه بل تطابق ديانة سبينوزا . أى إن المادة والقوة شئ واحد ليس بينهما انفصال . وكذلك الشأن فى الله والكون ، وفى العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد للمبادئ أو الدعوة إلى الاخاء والمساواة والحرية ، إلا وهى تسير على الأسلوب الدينى ، حتى لتتجاوز المنطق إلى الايمان ، وتسرف وتشط فى ناحية الغيرية والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهى ملهمة بالروح الدينى ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الايمان . وحركتنا نحن فى مصر فى سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة والإيمان أى بمقدار ما كان فيها من طرب الدين . وهى لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الدينى بتفشى الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية فى مصر ، دعوة الحرية والاخاء والمساواة ، إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث فى سنة ١٩١٩ ، طرباً دينيا يتألف من الحماسة والايمان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد : «لست كائناً أبداً ؛ إنما أنا صائر.» وبكلمة أخرى يجب ألا نجمد ونستقر ، بل ننمو ونتطور .

سلامة موسى